الحدود والأسوار ..

قصة بقلم جان الكسان

« فارس آخر مهزوم في الميدان .. يجر بقية من حبل اللجام ، وفي ظهره سهم من ذهب .. انه عجلاتي سوق ساروجة .. وقبله دخل آدم التجربة ، كان يسير في الجنة حالما سعيدا غير مطالب باجبار البيت ولا بفاتورة الكهرباء .. وعندما وجد نفسه امام انثاه ، حواء ، عبر عن فرحة اللقاء بحك أرنبة أنفه بجبينها ، وكانت بداية رحلة المتاعب » .

ـ هات رغيفا وتعال .. هات بصلة أيضا .. الفول المدمس بلا بصل ليس فولا مدمسا .

ـ ألن تستمع الي ؟ ظننت انك تريدني ان أتابع القراءة ، انني أكتب قصة حبك ..

ـ سيطردونك من كلية الطب .

ـ ماذا تقول ؟ ..

ـ اذا كانت ـ يا خميس مطر ـ هذه هي الوصفة التي تكتبها لمريض مثلي ، فأنت منذ الان ، طبيب فاشل .

ـ الوصفة صحيحة ، ولكن خط الطبيب لا يقرؤه الا الصيدلي.

ـ أنا عجلاتي ولست صيدليا .. اذا اردت ان تكتب عن قصة حبي شيئا (كل .. لماذا لا تأكل ؟.) أكتب كما رويتها لك : دراجة ، ومطبخ ، وساق ، وطشت غسيل .

***

قالت أم محمد وهي تضع صينية القهوة : نحن في اليوم الخامس من الشهر .. دكتور ...

فرد خميس : لم يبق الا العدس .. سيبيع ابي مدين منه ، ويرسل لي الدراهم فأعطيك الاجرة ، وعندما اتخرج سأعالجك من الروماتيزم مجانا .. اتفقنا ؟

ـ لو كان خسروف باشا يعلم أنك ستقطن غرفته في يوم من الايام لهدمها من اساسها ..

ـ اذن اسمعي (مد يده الى دفتر قلب صفحاته ثم توقف عند صفحة وراح يقرأ :)

« نهضت الاميرة نازلي عن سريرها المطعم بالعاج والذهب ، وهبطت ثلاث درجات حتى أصبحت قريبة من الشاب الفقير خسروف ..

ـ ماذا تقول ؟ شاب فقير ؟..

ـ اسمعي (متابعا القراءة) فربتت خده بكفها البضة ، وتحسست عضلاته باعجاب ، فما كان منه الا ان فتح حقيبة كانت بيده واخرج منها قرنفلة سوداء ، ثبتها في شعرها باحترام زائد ، ثم نظر الى الجهة اليسرى فاذا منجم القصر يجلس على الارض وهو يمزق رداءه بسكين عريضة (هل تعرفين ان جارك العجلاتي سيتزوج ، كان مارا أمام دار ابي سليمان سفل التلة .. ناداه سليمان الصغير ليصلح له دراجته .. دخل المطبخ ليجلب قبضة الهاون .. كانت فريزة ، اخت سليمان ، جالسة أمام طشت الغسيل ، رأى ساقيها وقسما من فخذها .. قرر ان يتزوجها .. تحدث عن الموضوع اول الامر على انه مغامرة مثيرة ، ثم تطور الحديث الى الزواج) .

اسمعي ـ يتابع القراءة ـ فجأة سقطت من سقف قصر الاميرة نازلي كرات كثيرة ملونة ، راحت تتراقص حول خسروف الفقير .

ـ ماذا تقول ؟ .. فقير ؟ ..

ـ وتراكض عدد من الجنود الانكشاريين ، ثم راحوا يرقصون في زاوية القاعة رقصة غريبة ، وبعد دقائق تكوموا في الزاوية عددا من حبات البرتقال .. من القنابل ؟ .

تقاطعه أم محمد : رأيت في المنام ان السماء تمطر احجارا من الياقوت ، ما ان تلامس الارض حتى تنفجر ..

ـ هذه قنابل اليهود يا أم محمد ..

ـ ايام خسروف باشا لم نكن مهددين هكذا ..

ـ اسمعي (يتابع القراءة) وقالت الاميرة نازلي لخسروف الفقير.

ـ مرة اخرى تقول : فقير ؟ ..

ـ اذا افرغت ما في جعبتك ملأتها لك بالذهب ، وأعطيتك بيتا في سوق ساروجة بدمشق فاسرع يقلب الحقيبة الى الارض ليتناثر منها أشياء غريبة متنافرة : كيس صغير من النايلون الشفاف فيه قطع حمراء من خمرة معتقة ، دبابيس شعر .. كتاب في علم الاجتماع ازميل .. أخبار البلد والجوار .. قلم حبر ريشته مكسورة .. ريش ملون من جناح طائر غريب ، سيكارة فصل عنها الفلتر ، قلم أحمر شفاه .. حرباء من الشكولاه .

ـ هل تهذي ؟ ما بك ؟ ..

ـ وصاحت الاميرة نازلي : املأوا الحقيبة بالقطع الذهبية وأعطوها لخسروف ... باشا .

***

هطل المطر بغزارة .. انها اولى مزن الشتاء .. لا شيء يبدو غريبا في المدينة حتى العقرب الوحيد لساعة ساحة الشهداء ، الواقف منذ شهور على الرقم ثلاثة بعد ان انفصل عنه رفيقه لسبب من الاسباب، وكأنه عين المدينة ـ التي نامت عينها الثانية ـ ساهرة مع صغار المقامرين المتناثرين حول موائد المقاهي ، ومع المتحلقين على مقاعد دور السينما ، أو المتسكعين على الارصفة بحثا عن احدى عاثرات الليل يختطفها الاقرب اليها ليقضي معها وطره في قبو أو على درج بناية نام أهلها .

في مقهى « السلوان » كانت الشلة ملتفة حول طاولة الزاوية اليمنى .

ـ أهلا دكتور .. أهلا دكتور ..

جلس خميس صامتا بعد ان نفض عنه ماء المطر .. وفي الزاوية الاخرى كان الفلكي ـ وهو معلم مدرسة متقاعد مهتم بشؤون الفلك ـ قد اراح عجيزته على كرسيه العتيد فاندلق امام كرش يذكر « خميس » كلما رآه بقربه « زينة » زوجة محمود مختار قريته وهي تخضها في الصباح لتفصل فيها الزبدة عن اللبن الحليب ..

قال الياس مشيرا الى الفلكي : سيطلب الاستاذ نارجيلة جديدة بعد قليل .. انه موعد ابدال النارجيلة الاولى .

وكان سليمان يتابع حديثه : لماذا اغلقوا المكتبة الامريكية ؟ . كنا نستعير منها الكتب ولا نردها فلا يطالبوننا بها ..

اما نديم ومحمد ، الشاعران ، فقد استأنفا نقاشهما البيزنطي الذي بدآه منذ سنوات حول زحافات الشعر .. حاول الفلكي ان يتدخل من مكانه .. في النقاش ، فرد عليه نديم : خلك بالفلك واترك الشعر لاصحابه ..

وقال سليمان : النقاش ليس جديا بين محمد ونديم .. ان أخي محمد يريد ان يثير اعصاب اخي نديم .

فعقب نديم : يا جبل ما يهزك ريح .

وينظر عادل الى محمد بعيني ثعلب شديد المكر وقال : سامع ؟ .

فرد محمد : دعه .. لم تصقله الحضارة بعد ..

انتزع نديم فلتر السيكارة التي يدخنها ورماه على الطاولة امام محمد : خذ .. هذه هي الحضارة وطرف سليمان باحدى عينيه وقال كأنه يخاطب نديما باستنكار : لماذا لا تدخن « ناعورة » مثلي ؟ ..

فتصدى محمد : انه التبذير .

وعقب عادل : بل قل اموال وزارة الثقافة ..

صاح نديم : قرد .. ماذا اعطتني وزارة الثقافة ؟ . لنا عندها شقفة معاملة ، كلما هم وزير بتوقيعها تبدلت الحكومة ..

قال خميس الوزير الحالي صديقك ..

قال نديم : الذين سبقوه ايضا كانوا اصدقائي ..

دخل نويل .. بدا أول الامر خلف الزجاج ينتفض تحت المطر كطائر تاه عن عشه ، فأشار له سليمان ليدخل وهو يقول : جاء من عمان ، ذهب اليها ليجلب مجموعات من الطوابع التذكارية عن زيارة البابا ليرسلها الى عميل له في ايطاليا .

القى نويل التحية .. فسأله عادل : هل كنت في الاردن ؟ ..

رد نويل : أجل ...

راح سليمان يصفق وينشد : « ما بيتحول .. ما بيتحول .. نهر الاردن ما بيتحول » .

صرخ الياس : اقلبوا الورقة يا شباب .. ما رأيكم في أكلة فول عند « ابو حسن » ؟

سأله محمد : ابو حسن ؟ أين مكانه ؟ .

فعقب عادل : معلوم .. زبائن « الستريو » لا يمكن ان يعرفوا مكان « ابو حسن » .

فرد محمد : كفرنا وسهرنا مرة بالستريو ؟ هل ستظل هذه السهرة لعنة تلاحقنا ؟ .

اي سيدي .. انا أول الذاهبين .

قال سليمان : هيا .. نويل ، امش معنا ..

فرد نويل : اما انا فأعتذر ، انني متعب من السفر ، سأذهب لانام .. وسار نويل .

فصاح به نديم : نويل .. ارسل الى ايطاليا مع الطوابع صور المنازحين .

***

حبات السبحة تطقطق في يدي العجلاني وهو يجلس ساهما مفكرا في صحن الدار وأمامه خميس يتأمل الحبات المتدافعة المتلاحقة (أطفال القرية في الساحة يقذفون الكرات الزجاجية الصغيرة الملونة، ويثيرون خلف اقدامهم العارية زوابع من الغبار .. كم كان « فهد » بارعا في قذف الكرات ، كان يجمع كل اصيل ما يملأ حضن ثوبه من هذه الكرات ، يغسلها امام صنبور المخفر ليبيعها بسعر مخفض في دكان ذنون العقلة ») ..

وتنبه على سؤال مفاجيء للعجلاني : كيف يصير الناس فدائيين ؟

ـ لا أدري .. هل تريد أن تصبح فدائيا ؟ .

ـ لا .. الفدائي يموت ، وانا اخاف الموت . لا اتصور ان تعلق ورقة نعي بأسمي في السوق .. اريد ان اظل في دكاني ، وان أتزوج فريزة بنت ابي سليمان ، وان اجمع ثمن بيت واتخلص من دفع الاجار لام محمد ..

ـ لم يطلب منك احد ان تصبح فدائيا ..

ـ ولكنني معجب بأعمالهم .. انهم ابطال .. أليس في دفترك شيء عنهم ؟ ..

ـ لا ...

ـ ألم يكن من الافضل لو كتبت عنهم بدل ان تكتب قصتي مع فريزة ، وقصة ام محمد مع خسروف باشا ..

ـ سأكتب اليوم عن الفدائيين .

ـ ماذا ستكتب ؟

ـ سأقول ان الفدائيين اصبحوا فدائيين من أجل ان يظل حسين العجلاني في دكانه ، ومن اجل ان يتزوج فريزة بنت ابي سليمان ، ومن اجل أن يجمع ثمن بيت يسكنه .

ـ من اين تركب هذا الكلام ؟ . انني لا ادري أن كنت كاتب عرض حالات ام حكواتيا ام طالبا في كلية الطب .

ـ شرحنا اليوم جثة ميت في المشرحة .

ـ ميت ؟ . هل دهسه باص ؟ .

ـ لا ...

ـ كيف مات اذن ؟ ..

ـ مات بالسكتة القلبية ..

***

قالت ام محمد وهي تضع صينية القهوة : نحن اليوم في اليوم العا ..... قاطعها خميس : خذي .. هذه هي الاجرة ..

ـ سألت عنك فقال لي حسين انك سافرت الى القرية .. هل استمعت الى الاخبار ؟ .

يقول الراديو ان اليهود ضربوا مصر .. نسيت أن اوصيك لتجلب لي بعض الفريكة من القرية .

(امس .. كان في لقاء مع قريته بعد سنوات من الغياب .. كالغريب المجهد عاد اليها تحمله سفينة لم يبق منها سوى اخشاب متعبة وشراع ممزق .. عشر سنوات وهو يطوف في خضم المدينة الهائج الوسيع دون ان يلوح له شاطيء يسند جبهته الى رماله .. عاد اليها والصغار قد شبوا ـ هل كبرتم لتحملوا بدوركم هم المعركة ؟ . لتجهدوا بالعزم والدعاء حتى لا تفرغ اكياس الدقيق ، وحتى لا يهاجمنا الجراد ـ؟ .

ويتأمل البيوت الطينية المتداعية ، ويكاد يحتضنها ويذر حباتها في عينيه حتى تسيح دموعه وتغسل ما علق في العينين من أوشاب العتاب .. في يوم خريفي ، منذ عشر سنوات ، حمل زوادته الفقيرة ورحل عنها يبحث في المدينة عن المستقبل والمعرفة ، ولكن المدينة ظلت حوله ضجة ساخرة وكأنه عدوها الاسطوري الذي تنتظره منذ اجيال) .

***

وضعت ام محمد صينية القهوة وقالت : هل استمعت الى الاخبار ؟ .

ـ الاخبار .. دائما الاخبار .. منذ سنتين والكل في دوامة الاخبار : « المخبر .. حزيران .. جثة باردة في المشرحة .. مئة مليون .. مئة مليون .. البترول .. فريزة .. ساق فريزة . جزء من فخذ فريزة .. طقطقة حبات السبحة .. مجنزرة .. نصف مجنزرة . مجنزرة .. حزيران .. حزيران .. ما بيتحول نهر الاردن .. ما بيتحول .. وادي عربة .. ام محمد .. خسروف باشا . حكواتي .. الحدود .. الاسوار .. الحدود بين مراكش والجزائر .. بين اليمن واليمن .. بين درعا وعمان .. السكر يهرب من عمان .. الراحة تصنع في درعا .. حزيران .. الاسوار خارج المدن .. الاسوار داخل المدن .. عدوان جديد على القناة .. القدس للعرب .. قامت احدى وحداتنا بضرب ميناء ايلات بالصواريخ .. طائرات .. ميراج .. سوخوى .. ميغ .. ميراج .. تل الفخار .. فانتوم . جليبينه .. سنتوريون .. الكرامة .. حرب التحرير الشعبية .. قفز بالمظلة .. التصميم .. نحن الشعب .. نحن الشعب .. الغضب يتطاير من عيني صقر .. امامه هدف واحد : ان يسقط الطائرة العدوة .. يزغرد المدفع بين يديه شجاعا ، وفيا ، دقيقا ، يتبادل المريض والطائرة قذيفتين .. تسقط الطائرة محترقة .. يسقط صقر شهيدا وعيناه ترصدان زحف رفاقه المتقدم عبر الافق ..

***

ـ ام محمد .. ما رأيك بالفدائيين ؟ ..

جان الكسان